"الإبدال الصَّوتي وعلاقته بتغير المعنى في العربيَّة"

م. م مرتضى حمدان عاجب المالكي
المديرية العامة للتربية في محافظة ميسان

"A caustic replacement and its relation on at tering the Arabic in meaning presenteh"

Asst. Lec.Martadh Hamdan A Jep
General Directorate of education in Misan
murtadhahamdan1985@gmail.com

Abstract

This paper probing to study the Acodustic replacementsWelch considered crucial linguistics truth and actual lone that affection on altering the semantic meaning to some words which changed not systemically but one of its sound with fixing the general meaning with holding and consorting between the sound and the real meaning in strangeness and weakness. illustrate the relation of meaning and that sound through tramps of utterances which collect beneath general semantic meaning and decode it by special one which held it by that change. The research launch's within the explanation the concept of replacement and its letters kinds and reasons them now it is change the meaning.

Keywords: (Voice substitution, Meaning changed,Substitution)

الخلاصة

يسعى هذا البحث إلى دراسة الإبدال الصوتيّ باعتباره حقيقة لغوية لها أثرها في تغيّر دلالة بعض المفردات التي طرأ عليها إبدال في أحد أصواتها مع بقاء المعنى العام، والتي ناسب الصوت المبدل فيها المعنى المتحقق؛ قوَّة وضعفاً، ويوضّح علاقة المعنى بطبيعة ذلك الصوت، عن طريق جملة من الألفاظ التي يجمعها معنى ودلالة عامَّة، وتفرقها دلالات خاصة، جلبها ذلك التغيير، وينطلق البحث من بيان مفهوم الإبدال وحروفه وأنواعه ودواعيه، ثمَّ يبيّن أثره في تغير المعنى.

الكلمات المفتاحية: (الإبدال الصَّوتي، تغير المعنى، الإبدال)

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الخلق أجمعين،حبيبنا ونبينا محمد خاتم المرسلين، وعلى آله الغر المنتجبين، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد:

فإنَّ الكلام الإنساني مكوَّن من سلسلة من الأصوات التي تشكل عدداً من المقاطع؛ فهي الركن المهم في بناء الجمل والعبارات، وهذه الأصوات تتكون في أماكن خاصة من جهاز النطق تسمى المخارج، وتكون على هيئات مختلفة تسمى الصفات، فإذا حدث لها خلل في توظيفها أو نوع من التغيير نتج عن ذلك ما يسمى بالإبدال أو الاستبدال الصوتي وهو باب واسع لا يمكن لهذه الدراسة الإحاطة به.

والإبدال الذي نتناوله هنا هو ذلك التغير الذي يحدث في بنية الكلمة بإحلال صوت محل صوت آخر دون أن يترتب على ذلك الإبدال تغير في المعنى المعجمي الأساسي للمفردة المبدلة والمبدلة منها. ومعنى ذلك أن يكون لدينا لفظان بمعنى واحد مع فارق دلالي أحدثه ذلك الإبدال.

وقد أصَّل أحد عباقرة اللغة لذلك وهو ابن جني (تـ 393هـ) في كتابه الخصائص فعقد باباً في (تصاقب الألفاظ لتصاقبالمعاني) وفي (أمساس الألفاظ أشباه المعاني)و(قوَّة اللفظ لقوَّة المعنى) بيَّن في ذلك القوَّة التعبيرية للصوت.

وقد اقتضت الضرورة أن يتناول البحث باختصار مفهوم الإبدال، وأنواعه، ودواعيه، والعوامل المسببة له، ومن ثمَّ أثر الإبدال في تغير المعنى. كما تناول البحث جملة من التطبيقات التي حوت ألفاظاً تعرضت للإبدال فتسبب في تغيير لمعانيها. وقد خدم هذا الإبدال المعاني التي جاءت لأجلها تلك الألفاظ.

أولاً: مفهوم الإبدال وحروفه

الإبدال في اللغة هو أن تجعل شيء مكان شيء آخر[731]. قال ابن جني:"والبدل: أن يُقام حرفٍ مقام حرفٍ إمَّا لضرورة أو استحساناً أو صنعة"[732] أو هو "جعل حرف مكان حرف آخر مطلقاً"[733].

والإبدال من سنن العرب في لغتهم فنراهم يقولون (مدحه) و(مدهه) و(فرس رفن) و(فرس رفل) وألفاظه كثيرة ومشهورة وقد كتب فيها كثير من القدماء[734]. ويُعد الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت175هـ) أول من أشار إلى هذا المصطلح بالتمثيل له، كما أشار إليه تلميذه سيبويه (ت180هـ) عند الحديث عن الأصوات التي يُبدل منها [735]، ثمَّ تناوله بعدهم علماء العربية الآخرين وقد أفرد بعضهم كتباً أو فصول اختصت بدراسته، والإشارة إلى حروفه حتى جعل بعضهم الإبدال في حروف العربية كلها[736].

ثانياً: أنواع الإبدال

يقسم الإبدال على قسمين رئيسين: هما الإبدال الصرفي أو القياسي، والإبدال اللغوي أو السماعي. والأول منهما هو إبدال لازم ضروري وقياسي مطرد إلا أنَّ حروفه غير متفق على عددها فمنهم من قال إنها خمسة عشر حرفاً تجمعها عبارة (استنجده يوم صال نط)[737] وجعلها بعضهم أربعة عشر حرفاً بإسقاط السين منها[738] في حين جعلها آخرون اثني عشر حرفاً جمعوها في عبارة (طال يوم أنجدته) أو (أجد طويت منهلا)[739] بينما انفرد ابن مالك في جعلها تسعة أحرف جمعها في عبارة (طويت دائما)[740].

ولعل هناك بعض الخلط فيما ذهبوا إليه؛ لأنَّ بعض ما ذكروا من الإبدال هو من قبيل الإعلال الذي يطال بعض الحروف كما في (قال، باع) التي أصلها (قَوَلَ، بَيَعَ) أو من قبيل الإبدال اللغوي غير المطرد.

والثاني هو الإبدال غير اللازم وغير الضروري والذي يسمى (الإبدال اللغوي) وهذا النوع يقع في أغلب حروف العربية. جاء في الهمع:"فغير الشائع وقع في كل حرفٍ إلا الألف، وألَّف فيه أئمة اللغة كتباً منهم يعقوب ابن السكيت،

731- ينظر: لسان العرب 344/1.

732- سر صناعة الاعراب: 69/1.

733- حاشية الصبان على شرح الأشموني: 391/4.

734- ينظر: الصاحبي في فقه اللغة: 203.

735- ينظر: كتاب سيبويه: 548/3 , الدراسات اللغوية عند العرب: 408.

736- ينظر: الدراسات اللغوية عند العرب: 417.

737- ينظر: شرح المفصل: 7/1.

738- ينظر: شرح الشافية للرضي: 197/3.

739- ينظر: الممتع في التصريف: 319/1.

740- ينظر: تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد: 300.

وأبو الطيب اللغوي، وفي كتابي المزهر نوع منه حافل"[741]. وعليه فإنَّ الإبدال يشمل كل الحروف ولا حدود له، وتستعمل فيه الكلمتان اللتان وقع فيهما أي الأصل والفرع، وربما لا يميز الأصل منهما من الفرع بخلاف النوع الأول فيقال (سراط – صراط– زراط) و(سقر – صقر).

كما يمكن أن نضع الإبدال في نوعين آخرين: الأول الإبدال على مستوى الحرف وهو ما تم ذكره وعليه مدار البحث، والآخر هو الإبدال الحركي وهذا النوع لا يقل أهمية عن الأول في تغير المعنى، غير أنّه لم يأخذ من الشهرة ما ناله الأول والذي ينسحب إليه مصطلح الإبدال في الغالب.

ومن الخصائص التي تمتعت بها العربية اعتمادها على مجموعة من الصوائت أو الحركات في تغير معاني الكلمات المكونة من الحروف ذاتها وبالترتيب ذاته فلا يمكن هنا الفصل بين الحرف وحركته، وهذا ما تنبه له علماء العربية في قضية التشكيل الصوتي بين الصوائت والصوامت وأثره في إنتاج معانٍ مختلفة لأبنية صرفية متشابهة ما يساعد على خلق ثروة هائلة من المفردات التي تثري اللغة، يجمعها عنصر معجمي ثابت يتشكل من نسق معين من الحروف وآخر متغير هو الحركات الثلاث في العربية [742].

وأمثلة ذلك كثيرة كالبناء للمعلوم في (كَتَبَ) والمجهول في (كُتِبَ) والماضي من (قاتَلَ) واسم الفاعل(قاتِلٌ) فقولنا مثلا: (هَزَمَ الرجلُ) تختلف كلياً عن قولنا: (هُزِمَ الرجلُ) مع اتفاقهما في المعنى العام للحدث وهو الهزيمة. وهذا في الأفعال أما في الأسماء فمثاله (البِر) في الإحسان للوالدين، و(البُر) وهو القمح، و(البَر) الأرض اليابسة، وغير ذلك كثير.

وتلعب قوَّة الحركة دوراً كبيراً في تنوع المعنى فالضمة مثلاً – وهي أقوى الحركات دلالة– استعملها العرب في (الذُّل) وهو ضد العز عند الإنسان بينما قالوا (الذِّل) بكسر الذال للدابة وهو ضد الصعوبة يُقال (تذلل الأمر) أي سَهُلَ فميزوا بينهما بالحركة مع ما بينهما من معنى عام مشترك وهو صفة الضعف؛ لأنَّ ما يلحق الإنسان من ضرر مادي ومعنوي أكبر مما يلحق الدابة فاختاروا الضمة للأثر الكبير لقوتها، والكسرة للأثر القليل لضعفها [743].

يتبين من ذلك أنَّ الحركات لها أهمية كبرى في تغير معنى الكلمات في السياق اللغوي، ولها وظيفة فعَّالة في تغير دلالة الصيغ الصرفية وهي ميزة تميزت بها العربية ما يمنحها الغنى والمرونة في الاستعمال.

ثالثاً: دواعي الإبدال

إنَّ التبدلات الصوتية التي تعتري بعض الألفاظ العربية يجب أن تُبحث أسبابها الموجبة وعللها؛ بغية الوصول إلى قوانين عامة تحكمها. ولهذه الدراسة من الأهمية الشيء الكثير ؛ لأنَّ معرفة تبدل الحروف تكشف الصلة بين الكلمات مهما تباعدت وتغيرت أشكالها.

واللغة كلما طال بها الأمد تجتمع فيها عوامل مختلفة تكون سبباً في تبدل بعض أصواتها. والباحث في هذا المجال يحتاج إلى الدقة في التعليل وإصدار القوانين[744] ولذا فالحالات الفردية أو عيوب النطق لا تعدُّ إبدالاً أبداً،وكذلك توهم السمع؛ لأنَّ العبرة في الإبدال أن يكون مطرداً بين مجموعة من الناس في بيئة محددة.

741– همع الهوامع في شرح جمع الجوامع: 219/2.

742– ينظر: المنهج الصوتي للبنية العربية: 43، جدلية المبنى والمعنى في فكر الخليل: 81.

743– ينظر: المحتسب: 18،19/2.

744– ينظر: فقه اللغة، محمد المبارك: 56.

ولعلَّ من بين الأسباب الموجبة لاختيار بعض الأصوات دون غيرها هو (العامل النفسي) فإنَّ بعض الأصوات يكون بحسب الحالة النفسية التي تكون عليها الشعوب فالذي يميل إلى الأصوات الرخوة يعيش حالة من الاستقرار، والذي يميل إلى الشِّدة يعيش حالة من القوة[745].

وللطبيعة والجغرافيا أثر في تباين اللهجات وإبدال حروفها فالذين يعيشون في بيئة زراعية مستقرة تختلف لهجتهم عن الذين يعيشون في البيئة الصحراوية أو البادية؛ لأنَّ مناخ البيئة الجغرافي يطبع اللسان بطابعه الخاص؛ ولذا فإنَّ "سكان السهول يمتازون بسهولة الألفاظ، ورقة المقاطع، وسكان الجبال يمتازون بخشونة اللفظة وقوة المقطع لحاجتهم الدائمة إلى عنصر القوة "[746].

ولعامل (السهولة والتيسير) أثر في إبدال بعض الحروف، وطريقة نطقها فالعادات والبقاع، واختلاف الأمكنة له أثر كبير في ذلك فقد روى السيوطي أنَّ رجلين اختلفا في لفظة (الصقر) فقال أحدهما أنَّها بالسين (السقر) وقال الآخر أنها بالصاد (الصقر) فما كان منهما إلا أن احتكما إلى أعرابي فقال: أمَّا أنا فأنطقها (الزقر) بالزاي[747]. وعليه فإنَّ للعادات اللهجية أثرُ في حدوث بعض الإبدالات التي تعتري الأصوات.

وهنالك عوامل أخرى أقلُّ أهمية وتأثيراً كاختلاف أعضاء النطق على مر العصور في نطقها لبعض الحروف المتجاورة أو المتقاربة وعامل الشيوع والذيوع أو ميل اللغة واللهجة إلى الإكثار من ترديد صوتٍ بعينه.

رابعاً: أثر الإبدال في تغير المعنى

يعمل إبدال صوت من أصوات الكلمة على إحداث تغير في المعنى في كثير من الأحيان؛ وذلك من باب التأكيد والزيادة، أو من باب المناسبة؛ إذ إنَّ بعض الأصوات تأتي لغرض المناسبة السياقية فتراهم يبدلون حرفاً من حرفٍ لا لقصور في الأول ولكن مناسبةً للسياق وأكثر ما يكون ذلك في القرآن الكريم، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ((**وَهُمْيَصْطَرِخُونَفِيهَا رَبَّنَاأَخْرِجْنَانَعْمَلْصَالِحًا**))[748] والأصل في (يصطرخ) (يصترخ) والإبدال هنا لازم في صيغة (افتعل) والصرخة هي الصيحة الشديدة عند الفزع، والصراخ هو الصوت الشديد[749]. وهنا قد أدى صوت الطاء الغرض البلاغي الذي جيء به من أجله فكأنك تسمع صوت المنبوذين في جهنم يطرق الأسماع، وهو صوت غليظ محشرج فتبدل المعنى بصورة كبيرة، وهذا ما لم يحدثه صوت التاء المبدل، وقد آزره في ذلك توالي جملة من الأصوات المناسبة للسياق فالصاد المصفِّرة والراء المكررة والواو الممدودة كل ذلك خلق جرساً نغمياً مناسباً للسياق، يضاف إلى ذلك ما لصوت الخاء من دلالة منفِّرة.

إنَّ الحرف العربي له ميزة ينفرد بها وهي رمزيته ودلالته على المعنى فحرف (الحاء) مثلاً نراه كثيراً ما يرمز للحدة والسخونة كـ (الحمى، الحرارة، الحب، الحريق، الحقد، الحميم، الحنظل، الحرام) وغير ذلك كثير. بينما حرف (الخاء) وهو ما موجود في لفظة (يصطرخون) يرمز إلى ما هو كريه كـ (الخوف، الخزي، الخيانة، الخلاعة، الخنوثة، الخذلان، الخنزير، الخسة، الخرف) وغير ذلك كثير. ولا يعني هذا أنَّ هذين الحرفين لا يأتيان في ألفاظٍ لمعانٍ جيدة ولكنها في المعاني السيئة أليق وهنا قد أضافت ذلك المعنى الذي أشرنا إليه.

745- ينظر: الوجيز في فقه اللغة، محمد الأنطاكي: 279.

746- الأخطاء الشائعة وأثرها في تطور اللغة العربية، ماجد الصائغ:14.

747- ينظر: المزهر في علوم اللغة: 475/1.

748- سورة فاطر / 37.

749- ينظر: لسان العرب 2/4 (صرخ).

ومن الأمثلة الأخرى لعلاقة الإبدال الصوتي بتغير المعنى لمناسبة السياق استعمال لفظتي (مكة – بكة) في القرآن الكريم وهما اسمان للمدينة المقدسة المعروفة بأم القرى. ولكن نظرة فاحصة كافية لكشف ما يحمله هذا الإبدال بين صوتي (الباء) و(الميم) الشفويان من تغير في الدلالة فقد جاء الاسم (بكة) من (البك) ويعني الزُّحام فالناس وقت الحج يزدحمون فيها قال الراغب الأصفهاني "البك: الدال على الزحام في الحج؛ لأنَّه في الحج يبك الناس بعضهم بعضاً؛ أي يزحم بعضهم بعضاً، وسمِّيت بكة لأنَّهم يزدحمون فيها"[750]قال تعالى: "((**إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ**))"[751].

أمّا عند الحديث عن السكن والإقامة فقال تعالى:"((**وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا**))"[752] لذا فقد تغير المعنى؛ لأنّه (مكة) دلَّت على مكان البلدة الشريفة والحرم بأكمله في حين أنَّ (بكة) هي ما بين الجبلين [753]، وقد ساعدت صفتي الجهر والشدَّة في الباء من (بكة) في الدلالة على الزحام مناسبة للسياق وانسجاماً معه؛ وذلك ما خدم المعنى العام للآية الشريفة [754].

ومثال آخر على تغير المعنى في لفظتي (أزَّ، هزَّ) الواردتين في قوله تعالى: "((**أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا**))"[755]. وقوله تعالى: "((**وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا**))"[756]، و(الأز) هو الحركة الشديدة، يُقال أزَّت القدر تؤزوتئز أزَّاً وأزيزاً اذا اشتدَّ غليانها[757]. وما يثير الانتباه هنا هو البلاغة العالية في توظيف الصوت لتنوع المعنى والاهتمام بأدق التفاصيل فاختير حرفا الهمزة والزاي لما لهما من أثر وقوة في النفس. فالمعنى الذي يؤديه الأز أعظم في النفوس [758].

أمّا لماذا لم يكن اللفظ (أزَّي) في الآية الكريمة الثانية؟ فالجواب أنَّ المعنى يتطلب ذلك؛ لأنَّ الهز للأشياء الملموسة كـ (الساق – الجذع) بينما الأز هو هز النفوس، وهو شيء معنوي. يضاف إلى ذلك استعمال الفعل القوي مع الحدث القوي فالأز للشياطين بما معروف لها من سلطان. أما الهز فإنَّ صوت الهاء فيه أضعف وأرق من الهمزة؛ لاختلاف صفتي الجهر والهمس بينهما. وكانت السيدة مريم(ع) في حالة مخاض وضعف.

وعليه فقد عمل الجهر والشدة في الهمزة على إذكاء المعنى وتقويته ليناسب الحدث ما أعطى تعظيماً للمشهد. يضاف إليه تشديد الزاي وإطالة صفة الصفير فيها. ولذا فقد تحقق التطابق بين صوت الحرف ومعناه على خلاف صوت الهاء المهتوتة في (هزي) والتي أفادت مجرد الحدث على ضعفه. والله أعلم.

750- المفردات في غريب القرآن: 57.

751- سورة آل عمران /96.

752- سورة الفتح /24.

753- ينظر: لسان العرب: (مكك).

754- ينظر: أثر الاستبدال الصوتي في القرآن الكريم: 275.

755- سورة مريم / 83.

756- سورة مريم / 25.

757- ينظر: كتاب العين: (أزز)، القاموس المحيط: (أزز).

758- ينظر: الخصائص: 146/2.

وتزخر العربية بالكثير من التبدلات الصوتية التي أحدثت تغيراً في المعنى وقد ذكر ابن جني أمثلة كثيرة على ذلك فقد قالوا: (قطَّ الشيء) إذا كان قد قطعه عرضاً، في حين قالوا (قدَّه) إذا قطعه طولاً؛ لأنَّ الطاء أقصر مدَّة من الدَّال فجعلوا الجهد الأكبر مع الصوت الأطول والعكس[759].

وكذلك الإبدال بين لفظتي (مدَّ – مطَّ)جاء في الإبدال والمعاقبة والنظائر "مدَّ يمدُّ مدَّاً، مطَّ يمطُّ مطَّاً"[760] فـ (المد) لمجرد الحدث وذلك عندما يُمد الحبل دون زيادة في طوله أمَّا (المطّ) تدل على الحدث وزيادة في الطول.

خامساً: نماذج في الإبدال

إضافة لما ذكرنا من مفردات في أثناء الشرح فمن المفيد هنا أن نورد بعض الألفاظ التي حدث فيها إبدال ونتج عنه زيادة في المعنى أو مناسبة بين الحرف البديل وسياق النص، أو محاكاة للحدث بما يمتلكه هذا الصوت من مزايا في مخرجه أو صفته.

1 – خَضِمَ، قَضِمَ

أشرنا سلفاً أنَّ الصوت إذا كان رقيقاً أصبح معه معنى الكلمة دالاً على الخفة والرقَّة، أمَّا الصوت الغليظ فيجعل الكلمة معه تدل على الشدة والغلظة ويشوبها نوعٌ من القوَّة والجهد. ومن ذلك ما ورد من إبدال (الخاء، القاف) في لفظتي (خضم، قضم) اللتين تشتركان في معنى عام هو التقطيع والهرس مع اختلاف دلالي بينهما.

والخضم في اللغة الأكل. جاء في اللسان "الخضم:الأكل بجميع الفم"[761]. وأمَّا القضم فهو الأكل والقطع بأطراف الأسنان. يقال: قضم الفرس الشعير. والقضم هو أكل الشيء اليابس [762]. وفي القاموس "قَضِمَ كـ سَمِعَ: أكل بأطراف أسنانه أو أكل يابساً"[763].

وواضح ما بين اللفظتين من اختلاف دلالي جلبه الإبدال الصوتي، فالخاء أخفُّ من القاف ولذا جيء به للمعنى الخفيف. قال ابن جني: "ومن ذلك قولهم: خَضِمَ، وقَضِمَ. فالخَضْم لأكل الرطب؛ كالبطيخ والقِثاء وما كان نحوهما من المأكول الرطب. والقَضْم للصلب اليابس؛ نحو قَضِمت الدَّابة شعيرها، ونحو ذلك... فاختاروا الخاء لرخاوتها للرطب، والقاف لصلابتها لليابس؛حَذواً لمسموع الأصوات على محسوس الأحداث[764].

وكلام ابن جني خلاف ما ذكره أبو عبيدة من أنَّ الخضم أقوى من القضم إذ قال: "الخضم أشد في المضغ وأبلغ من القضم، وهو بأقصى الأضراس والقضم بأدناها"[765].

ولعل ما ذهب إليه ابن جني أصوب وهو ما أكدته المعاجم وكذلك بالعودة إلى صفة الصوتين فالقاف صوتٌ شديدٌ مجهورٌ مستعلٍ. أما الخاء فصوت مهموس رخو وذلك دليل على قوَّة القاف في (قضم) وضعف الخاء في (خضم) مع اشتراكهما في المعنى العام.

2– نَطَقَ – نَعَقَ(نَغَقَ) – نَهَقَ

759– ينظر: الخصائص: 66/1، 158/2.

760– الإبدال والمعاقبة والنظائر: 40.

761– لسان العرب: (خضم).

762– ينظر: لسان العرب: (قضم).

763– القاموس المحيط: (قضم).

764– الخصائص: 158/2،157.

765– غريب الحديث: 210/5.

هذه الألفاظ جميعها تدل على الصوت مع اختلاف المصوّت ومنزلته ونوع صوته، فالأوّل للإنسان وهو محبب والآخران للحيوان وهما مستكرهان وليس كل صوت حيوان مستكره ولكن ما ذكرنا ينطبق عليه الوصف. قال تعالى: **((إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ))** [766] وقال تعالى: "**((وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً))**"[767]. والنعيق هنا هو الصوت غير المفهوم الذي يطلقه الراعي فلا يُفقه منه شيء.

فأمَّا (نطق) فللإنسان. جاء في اللسان: "نطق الناطق ينطق نطقاً: تكلَّم والمنطق: الكلام، وكلام كل شيءٍ منطقه... وقد يُستعمل المنطق في غير الإنسان كقوله تعالى: عُلِّمنا منطق الطير"[768].

وأمَّا (نعق) فللغراب. وقد تلفظ بالغين المعجمة وهو ما يزيدها استكراها. جاء في اللسان: "ونعق الغراب نعيقاً ونُعاقاً والأخيرة عن اللحياني. والغين في الغراب أحسن"[769] ولعلَّ ذلك هو الصحيح؛ لأنَّ(نعق) وردت في الذكر الحكيم للإنسان كما في الآية الكريمة أعلاه ويراد بها الراعي، وكل كلام غير مفهوم فهو نعق. جاء في اللسان: "والثقاة من الأمَّة يقولون نغق الغراب بالغين المعجمة ونعق الراعي بالشاء بالعين المهملة"[770].

ومهما يكن من أمرٍ فإنَّ المفردة في الحالين قد حدث فيها إبدالٍ وتطور دلالي كما سنرى.

أمَّا (نهق) فللحمار. جاء في اللسان: "نُهاق الحمار: صوته. والنهيق: صوت الحمار... ونَهَقَ الحمار يَنهِق ويَنهَق نهقاً ونهيقاً ونهاقاً وتنهاقاً: صوَّت"[771]. وفي القاموس: "ونهق الحمار، كـ ضَرَبَ وسَمِعَ، نهيقاً ونُهاقاً: صوَّت"[772].

وبالنظر في الكلمات الثلاث نرى أنَّ الأصوات المبدلة هي (الطاء) للإنسان، و (العين، الغين) للغراب، و(الهاء) للحمار، وكلٍّ يحكي صوت صاحبه. قال ابن جني: "وسمَّوا الغراب غاق حكاية لصوته"[773]. وواضح وجود صوت الغين حتى في الاسم.

والطاء في (نطق) ألطف وهي أكثر تجانساً مع النون والقاف وتدل على التحبب وهي أكثر حكاية لصوت الإنسان فهي صوتٌ مجهور مطبق مقلقل. أمَّا (نعق، نغق) في الغراب فهي حكاية واضحة لصوته أيضاً كما جاء عن ابن جني وتدل دلالة واضحة عليه. وبما أنَّ الغراب صوته أخشن وأصدى في السمع من صوت الإنسان فقد جاءت العين أو الغين لتدلان على ذلك والغين فيه أكثر التصاقاً؛ لأنَّها صوت مجهور شديد مستعلٍ. في حين جاءت الهاء مع صوت الحمار في حكاية واضحة له وهي أكثر ما يكون في صوته حين ينهق والهاء أكثر التصاقاً لأنها صوت مهموس رخو مستفل منفتح وهذه الصفات هي من صفات الضعف وهي مكرهة وعليه يمكن القول أنَّ التغير الدلالي واضح في الألفاظ الثلاث وعلى مستوى استكراه الصوت أو قوته وحكايته.

3- قَطَعَ – قَطَفَ

تأتي (قطع) لمعانٍ كثيرة ولكن ما يهمنا هنا هو معناها المادي الدَّال على قطع الشيء وفصله.

766- سورة لقمان /19.
767- سورة البقرة /171.
768- لسان العرب: (نطق).
769- لسان العرب: (نعق).
770- لسان العرب: (نعق).
771- لسان العرب: (نهق).
772- القاموس المحيط: (نهق).
773- الخصائص: 65/1.

وبالعودة إلى المعجم العربي تتكشف دلالة كل منهما ويبين الفرق الذي أحدثه الإبدال في الدلالة وسبب اختيار هذه الأحرف فقد جاء في اللسان أنَّ القطع هو "إبانة بعض أجزاء الجرم من بعض فصلاً... والقطع: مصدر قطعت الحبل قطعاً فانقطع"[774] وهو بهذا المعنى يعني فصل أجزاء الشيء ومباعدتها عن بعضها.

أما القطف فهو القطع والمباعدة ولكن بطريقة أخرى ولأشياء محددة. جاء في اللسان: "قطف الشيء يقطِفه قطفاً وقطفاناً وقَطافاً... والقطف ما قُطِف من الثمر، وهو أيضاً العنقود ساعة يقطف... والجمع قطوف... قال سبحانه: قطوفها دانية؛ أي ثمارها قريبة التناول يقطفها القاعد والقائم"[775]، وفي الصحاح: "قطفت العنب قطفاً. والقِطف بالكسر: العنقود". [776]

وواضح ما بين اللفظتين من اختلاف دلالي رغم اشتراكهما في المعنى العام. فالقطع يكون معه القوة والشدة؛ ولذلك استعمل معه حرف العين المجهور. وأما القطف فيكون برفق ولين دون استعمال للقوة فيقال: قطف الزهرة وليس قطعها، وقطف الثمار، وكل ذلك حكاية للحدث ومراعاة له ومناسبة بين الصوت المستعمل والجهد المبذول. وقد أدَّى ذلك الغرض صوت الفاء المبدل وهو صوت مهموس رخو مستفل؛ولذا فقد جيء بالصوت القوي للجهد الكبير والصوت الضعيف للجهد القليل.

4- نضخ – نضح

يشترك الفعلان في المعنى العام وربما في الجذر اللغوي نفسه وهو جريان الماء، ولكنهما يختلفان دلالياً وعامل الاختلاف هنا هو الصوت المبدل والمبدل منه (الخاء والحاء).

والنضخ في اللغة "شدَّة فور الماء في جيشانه وانفجاره من ينبوعه؛ قال أبو علي: ما كان من سفلٍ إلى علو فهو نضخ. وفي التنزيل: فيهما عينان نضاختان أي فوارتان"[777] وفي المصباح المنير "نضخت الثوب نضخاً من بابي ضَرَبَ ونَفَعَ إذا بللته أكثر من النضح فهو أبلغ منه. وغيث نضَّاخ أي كثير غزير"[778].

أمَّا النضح فهو جريان الماء دون ذلك. جاء في اللسان: "ونضحت الخابية والجرة تنضح إذا كانت رقيقة فخرج الماء من الخزف ورشحت وكذلك الجبل الذي يتحلَّب الماء بين صخوره"[779].

يتضح من خلال المعنى المعجمي أنَّ النضخ أقوى من النضح يؤيد ذلك قوله تعالى: ((**فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ**))[780] فجُعِلت الحاء لما لا قوَّة فيه محاكاة لصوتها ومراعاة لطبيعتها، وجعلت الخاء لما فيه قوة وشدَّة لغلظها. قال ابن جني: "ومن ذلك قولهم: النضح للماء ونحوه، والنضخ أقوى من النضح... فجعلوا الحاء– لرقتها– للماء الضعيف، والخاء – لغلظها– لما هو أقوى منه"[781]. والحاء صوتٌ ضعيف فيه فحيح وهدوء وهو أقرب إلى الهاء فهو رخو مهموس مستفل أمَّا الخاء فمستعلٍ مفخَّم ولذا كان له المعنى الأقوى.

774- لسان العرب: (قطع).
775- لسان العرب: (قطف).
776- الصحاح: (قطف).
777- لسان العرب: (نضخ).
778- المصباح المنير: (نضخ).
779- لسان العرب: (نضح).
780- سورة الرحمن / 66.
781- الخصائص: 158/2.

5- سَعَدَ – صَعَدَ

من الألفاظ التي حدث فيها إبدال وأدى إلى تغير المعنى هذان اللفظان فكلاهما يحمل معنى الارتقاء والصعود ولكن الأول معنوي والآخر مادي؛ لأنَّ السَّعد والسعود والسعادة هو الصعود والارتقاء النفسي. جاء في اللسان: "السَّعْد: اليمن، وهو نقيض النَّحس والسعودة خلاف النحوسة، والسعادة خلاف الشقاوة"[782]، أمَّا الصعود فهو العلو والارتقاء المادي والجسماني، يقال: "صَعِدَ في السُّلم صعوداً، وصعد في الجَّبَل، وصعد عليه تصعيداً: رَقِيَ"[783]. وفي القاموس "صعيد من الأرض المرتفع". [784]

وواضح ما بين الحرفين من اختلافٍ أدَّى إلى تغير في المعنى؛ لأنَّ الصعود يحتاج إلى جهد أكبر من السعود والسعادة. قال ابن جني: "ومن ذلك قولهم: صَعِدَ وسَعِدَ فجعلوا الصاد – لأنَّها الأقوى- لما فيه أثر مشاهد يُرى، وهو الصعود في الجبل والحائط ونحو ذلك. وجعلوا السين – لضعفها- لما لا يظهر ولا يُشاهد حسَّاً، إلا أنَّه مع ذلك فيه صعود الجَدْ، لا صعود الجسم". [785]

6- قسم – قصم- فصم

ومن الألفاظ التي حصل فيها إبدال بين السين والصاد أيضاً (قسم – قصم) وهنا استُعمِلت الصاد أيضاً للمعنى الأقوى الملازم للفعل الأقوى فالقصم هو قطع الشيء مع الدَّق. جاء في اللسان: "القَصْمُ: دقُّ الشيء. يُقال للظالم: قَصَمَ اللهُ ظهره. والقَصْم كسر الشيء الشديد حتى يبين"[786]. أمَّا (القسم) مصدر (قَسَمَ) فهو دون ذلك وأقل حدَّة منه ويفيد مجرَّد الحدث. جاء في اللسان: "القَسْمُ: مصدر قَسَمَ الشيء يقسمه قسماً فانقسم... وقسمه: جزَّأه، وهي القسمة"[787]. وفي القاموس المحيط:"قسمات الوجه: تقاسيمه،تقسيماته،ملامحه وتقاطيعه ومعالمه"[788].

لذا فقد استعمل الصوت الأقوى مع الفعل الأقوى والصوت الأضعف للفعل الأضعف وهذا هو الغرض من الإبدال. قال ابن جني في الخصائص:"ومن ذلك القسم والقصم. فالقصم أقوى فعلاً من القسم؛ لأنَّ القصم يكون معه الدَّق، وقد يقسم بين الشيئين فلا يُنْكَأ أحدهما، فلذلك خصَّ بالأقوى الصاد، وبالأضعف السين"[789]. وقد ساعد على ذلك كون الصاد حرفٌ مستعلٍ والسين مستفل.

وليس بعيداً عن ذلك الفعل (فَصَمَ) وهو أقل حدَّة منهما وقد أفاد ذلك صوت الفاء المبدل في أول اللفظ. جاء في اللسان: "الفَصْمُ: الكسر من غير بينونة"[790] وقال أبو عبيد: "وأمَّا الفصم بالفاء: فهو أن ينصدع الشيء من غير أن يبين"[791]. لذا فالفصم هو أن ينكسر الشيء ولكن ليس كلياً وهو ما ل عليه صوت الفاء المهموس الرخو المستفل.

782- لسان العرب: (سعد).
783- لسان العرب: (صعد).
784- القاموس المحيط: (صعد).
785- الخصائص: 161/2.
786- لسان العرب: (قصم).
787- لسان العرب: (قسم).
788- القاموس المحيط: (قسم).
789- الخصائص: 161/2.
790- لسان العرب: (فصم).
791- غريب الحديث: 294/3.

ما يلاحظ هنا هو التدرج بالفعل يقابله التدرج بقوة الصوت فمن القصم الذي هو الكسر مع الدق إلى القسم الذي هو مجرَّد الكسر إلى الفصم الذي هو دون ذلك يقابله صوت الصاد المستعلِ والسين المستفل والفاء المستفل أيضاً.

الخاتمة ونتائج البحث

ختاماً لهذا البحث أود أن أعرض لجملة من النتائج العامة التي توصلت إليها من خلاله وهي بالتأكيد نتائج عامة. أمَّا النتائج الجزئية أو الخاصة فموجودة بين أثناء البحث وليس من المفيد عرضها بشكل موسع.

1 – الإبدال في العربية هو جعل صوت محل صوت آخر لضرورة أو صنعة أو استحساناً مع اشتراك اللفظتين في المعنى العام بفائدة بسيطة أو عدم اشتراكهما أصلاً.

2– يقسم الإبدال على قسمين رئيسين هما الإبدال اللازم أو القياسي، وغير اللازم أو السماعي. كما يمكن تقسيمه على إبدال على مستوى الحرف أو الحركة.

3– هنالك عدة عوامل تساعد في حدوث الإبدال كالعامل الجغرافي والنفسي واللهجي. وبعض الإبدال يكون مقصوداً لغرض زيادة المعنى أو محاكاة اللفظ لمعناه.

4– يؤثر الإبدال في تغيير المعنى كثيراً فهو إجراء مقصود في كثير من الأحيان تلجأ إليه اللغة وليس اعتباطياً وقد أكد على هذه الحقيقة ابن جني في كتابه الخصائص.

5– لصفة الصوت قوة وضعفاً دور مهم في تحديد معنى اللفظة واستعمالها وهي الفارق في كثير من الأحيان بين المبدل والمبدل منه.

6– عرض البحث لمجموعة من الألفاظ التي حدث فيها وخرج بنتائج طيبة تؤكد علاقة الإبدال بتغير المعنى.

مصادر البحث ومراجعه

1- القرآن الكريم

2- الإبدال والمعاقبة والنظائر، أبو إسحق الزجاجي، تحقيق: عز الدين التنوخي، ط2، دار صادر – بيروت – لبنان 1993م.

3- أثر الاستبدال الصوتي في القرآن الكريم، د. خميس فزاع عمير، مجلة جامعة تكريت للعلوم،العراق، العدد الخامس، لسنة 2012 م.

4- الأخطاء الشائعة وأثرها في تطور اللغة العربية، ماجد الصائغ، ط1، دار الفكر اللبناني، 1990م.

5- تاج اللغة وصحاح العربية، أبو نصر اسماعيل بن حماد الجوهري (ت393هـ)، تحقيق: د. أميل بديع يعقوب – د. محمد بيل، منشورات: محمد علي بيضوي، دار الكتب العلمية – بيروت، د.ت.

6- تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد، جمال الدين محمد بن عبد الله بن مالك الجياني الأندلسي (ت672هـ) تحقيق: محمد كامل بركات، دار الكتاب العربي، 1967م.

7- جدلية المبنى والمعنى في فكر الخليل، دراسة تطبيقية في مجال القراءات القرآنية، د. نهاد فليح حسن، مجلة المورد، دار الشؤون الثقافية، المجلد السادس والثلاثون، العدد الرابع، لسنة 2009م.

8- حاشية الصبان على شرح الأشموني على ألفية ابن مالك،محمد بن علي الصبان تـ (1206هـ) دار إحياء الكتب العلمية، مصر، د.ت.

9- الخصائص، لأبي الفتح عثمان بن جني (ت392هـ)، تحقيق: محمد علي النجار، دار الكتب المصرية، المكتبة العلمية، د.ت.

10- الدراسات اللغوية عند العرب،محمد حسين آل ياسين، منشورات دار ومكتبة الحياة – بيروت – لبنان 1980م.
11- سر صناعة الاعراب، لأبي الفتح عثمان بن جني (ت392هـ)، ط1، دار الكتب العلمية، 2000م.
12- شرح شافية ابن الحاجب، رضي الدين الاستراباذي (ت686هـ)، تحقيق: محمد زفزاف وآخرين، مطبعة حجازي – القاهرة 1358هـ.
13- شرح المفصل، موفق الدين يعيش بن علي بن يعيش النحوي (ت643هـ)، مكتبة المتنبي – القاهرة.
14- الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها، أحمد بن فارس، تحقيق: مصطفى الشويمي، بيروت– لبنان – بدران وشركاه 1964م.
15- العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت175هـ)، تحقيق: د. مهدي المخزومي – إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، د.ت.
16- غريب الحديث، لأبي عبيد القاسم بن سلام الهروي، تحقيق: حسين محمد شرف، الهيأة العامة لشؤون المطابق الأميرية – القاهرة، 1984 م.
17- فقه اللغة وخصائص العربية / د. محمد المبارك، ط7، دار الفكر – بيروت – لبنان، 1981م.
18- القاموس المحيط، محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، تحقيق: محمد نعيم العرقسوسي، منشورات مؤسسة الرسالة.
19- كتاب سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر (ت180هـ) تحقيق: عبد السلام محمد هارون، ط3، مكتبة الخانجي – القاهرة،مطبعة المدني 1988م.
20- لسان العرب، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي (ت711هـ)، ط3، دار صادر – بيروت، 1993م.
21- المحتسب في تبيين وجوه القراءات والإيضاح عنها، لأبي الفتح عثمان بن جني (ت392هـ)، تحقيق: علي النجدي وآخرين،المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية – القاهرة، 1970م.
22- المزهر في علوم اللغو وأنواعها، جلال الدين السيوطي (ت911هـ)، تحقيق: محمد جاد المولى وآخرين، منشورات المكتبة العصرية – بيروت، 1986هـ.
23- المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، أحمد بن علي الفيومي (770هـ)، تحقيق: عبد العظيم الشناوي – دار المعارف – القاهرة، د.ت.
24- المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، تحقيق: صفوان عدنان داود، ط1، دار القلم – دمشق، 1996هـ.
25- الممتع في التصريف، ابن عصفور الأشبيلي، تحقيق: د. فخر الدين قباوة، ط3، دار الآفاق الجديدة، بيروت – لبنان، د.ت.
26- المنهج الصوتي للبنية العربية، د. عبد الصبور شاهين، مؤسسة الرسالة، 1980م.
27- الوجيز في فقه اللغة، محمد الأنطاكي، ط3، مكتبة دار الشرق، د.ت.
28- همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، جلال الدين السيوطي، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، المكتبة التوفيقية – مصر، د.ت.